المحاضرة الخامسة:

مراحل نظام الحكم في الجزائر العثمانية

مر نظام الحكم العثماني في الجزائر بأربع مراحل يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

١- **مرحلة البيلربايات (أمير الأمراء):**تمتد من ١٥١٨-١٥٨٧ حيث عرفت الجزائر بالقوة والتطور والازدهار في جميع المجالات، وفيها تم إلحاق الجزائر رسميا بالدولة العثمانية عام ١٥١٩،كما تم توحيد رقعة البلاد والقضاء على التحرشات الإسبانية والتمردات. وقد حكم البلاد رجال البحرية (رياس البحر) كانت البداية لخير الدين بربروس الذي عين أول حاكم للجزائر ومنح لقب بايلرباي بمعنى أمير الأمراء وهو من المناصب الرفيعة في الدولة ولم يكن يتمتع بهذا اللقب وقت ذاك سوى عدد محدود من كبار الشخصيات العثمانية ومنها اعتبرت الجزائر قاعدة الحكم العثماني في شمال إفريقيا وفي غرب البحر المتوسط. كما كان البيلرباياتوهم من كبار رجال البحر الذين يعود إليهم الفضل في تنظيم القوة البحرية العثمانية وفي التفوق البحري العثماني في المتوسط. لقد أصبحت الجزائر إحدى ولايات الخلافة العثمانية وتداول على حكمها في هذه المرحلة حوالي ٢٠ حاكما كان آخرهم علج علي الذي انتهى حكمه ١٥٨٧ حمل لقب بيلرباي العديد من الرياس الذين توالو الحكم مثل لحسن بن خير الدين وصالح رايس وعلج علي وغيرهم في حين كان آخرون عبارة عن خلفاء للبيلربايات ينوبون عنهم في الحكم عندما يتم استدعاؤهم من قبل السلطان.

لقد كان الولاة يعينون من طرف السلطان العثماني فعلاقتهم به لم تكن علاقة تبعية بل كانت علاقة صداقة وتحالف فالسلطان العثماني كان يهمه

وجود شخصية قوية في تلك المناطق ومن رجال البحر بالذات، كما كان يسعى إلى إقامة تعاون وثيق وصادق بين سلطنته ونوابها في الجزائر.

لقد كانت السلطة في الجزائر تمارس من طرف البيلربايات مباشرة أو عن طريق نوابهم وكانت سلطتهم تصل إلى باشوات تونس وطرابلس وكانوا يتصرفون باستقلالية ويتمتعون بثراء كبير ونظرا لأهمية منصب البيلرباي فلقد أولى السلطان العثماني أهمية بالغة لهم وهو ما ساعدهم على ضم بعض أقطار من المغرب العربي كالجزائر، تونس وطرابلس تحت راية الدولة العثمانية.

وقد نجح حكام هذه المرحلة في تحقيق الوحدة الإقليمية والسياسية للدولة الجزائرية فهم من صنع مجد الجزائر بتحرير العديد من مدنها الساحلية من قبضة الاحتلال الإسباني كبجاية ووهران وتلمسان وحصن البنيون الذي تم استرجاعه عام ١٥٢٩ وأسر قائد الحامية الإسبانية مارتن دوفرغاس ومن معه من جنود وهي مناطق ذات أهمية استراتيجية في المنطقة. كما استطاعوا القضاء على الدولة الزيانيةبتلمسان ومد نفوذهم إلى الواحات بالجنوب (الأغواط).

وامتلكت الجزائر في هذه المرحلة أسطولا بحريا قويا تمكن من فرض سيطرته في حوض البحر المتوسط كما أجبر الدول الأوروبية على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها ولعب أيضا دورا كبيرا في مساندة الدولة العثمانية في حروبها ضد أعدائها وضمن للدولة مداخيل معتبرة ساهمت في إثراء خزينتها وكان ذلك سببا في ازدهار الجزائر واكتسابها لمكانة وهيبة دولية في حوض البحر المتوسط و ساعدها ذلك في بناء الحصون والقلاع والمساجد والقصور والحمامات.

وقد عرفت الجزائر بداية تقارب العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا وكان ذلك زمن السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الأول، حيث تحصلت فرنسا على امتيازات واسعة في أملاك الدولة العثمانية ١٥٣٥ ومن هنا بدأت الأطماع الفرنسية في المنطقة.

كما تم تنظيم إدارة حكم الجزائر في عهد البايلرباي حسن باشا حيث قسمت البلاد إلى أربع بايلكات وهي كالأتي دار السلطان مركزه مدينة الجزائر وبايلك الشرق مركزه قسنطينة، وبايلك الغرب مركزه مدينة مازونة ثم معسكر ثم وهران بعد فتحها نهائيا عام ١٧٩٢، وبايلكالتيطري مركزه مدينة مدية.

لقد تميز ولاة هذه المرحلة بالقوة حيث أثبتوا جدارتهم في الداخل والخارج ومدوا نفوذهم إلى خارج الوطن تونس وطرابلس وبهذا تكون الجزائر قد عرفت خلال مرحلة البيلربايات بناء الدولة الجزائرية الحديثة التي كان لها شأن عظيم ضمن دول العالم.

٢- مرحلة الباشوات (١٥٨٧-١٦٥٩):

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر في الحديث، حيث أرادت الدولة إدخال تعديلات في نظام الحكم خاصة وأنها وجدت بأن ولاة الجزائر أصبحوا يحكمون الابلاد حكما مطلقا ويتصرفون في شؤونه بكل حرية ولعل من أسباب تغيير نظام الحكم هو اشتداد الصراع بين طائفة رياس البحر وجنود الإنكشارية لذلك فالسلطة العثمانية أرادت تخفيف حدة الصراع بين الطرفين، وعليه رأى الحكام العثمانيون في إسطنبول أن جمع السلطة في الولايات الثلاثة (الجزائر- تونس- طرابلس) تحت حكم رجل واحد يشكل خطر على الإمبراطورية العثمانية لذلك تقرر تقسيم الحكم بفصل هذه الولايات عن بعضها

البعض وإسناد إدارة كل ولاية إلى باشا يتم تعينه لمدة ثلاث سنوات وكان الهدف من هذا التغيير هو إحكام سيطرتها على البلاد ومنع حدوث تمردات وثروات ضدها لقد دامت فترة الباشوات ما يقارب ٧٢ سنة تعاقب خلالها على الحكم حوالي ٢٧ باشا وما يميز عهد الباشوات هو الحصول على الثروة عن طريق جمع أكبرعدد من الأموال طوال فترة حكمهم، وكانوا يقومون بشراء المناصب من الباب العالي عن طريق دفع الرشوة أو الهدايا، فتخلى بذلك الحكام عن مسؤولية تسيير شؤون البلاد التي أصبحت مسألة ثانوية لا تهمهم. أما السلطة فصارت بيد ديوان الأوجاق الذي أخذ يتقوى وزادمن نفوذه وسيطرتهوراح ضحية ذلك الأهالي والهدف من جبروته هو الرغبة في التخلص من الهيمنة العثمانية.

وقد عرفت البلاد في فترة حكم الباشوات نوع من الاضطرابات والصراعات التي انعكست سلبا على استقرار البلاد، هذا بالإضافة إلى فساد نظام الادارة وعدم تنفيذ أوامر الادارة المركزية إضافة الى تفاقم الوضع الداخلي بظهور وانتشار عدة ثورات محلية كثورة الكراغلة عام ١٦٣٣ وثورات القبائل ١٦٤٣.

إن ظهور هذه الثورات وغيرها كانت سببا في تعميق الهوة بين المجتمع والسلطة فاهتزت بذلك الثقة بين الطرفين وما لبث أن تم القضاء على نظام الباشوات وتقرر إعطاء السلطة التنفيذية لأغا رئيس الفرقة العسكرية لمدة شهرين أما السلطة التشريعية فتقرر أن تكون بيد الديوان وبالتالي فإن طائفة رياس البحر تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم.

٣- مرحلة الآغوات (١٦٥٩- ١٦٧١):

يعتبر هذا العهد عهد تسلط الجيش حيث يمثل أحلك فترة في تاريخ الجزائر العثماني. ويعود سبب قيام حكم الأغوات إلى سياسة الباشوات المالية،

حيث قام ابراهيم باشا بنهب المعاشاة والضرائب وجرد ديوان الجند من أي صلاحيات تمكنه من ضبط وربط الشؤون العسكرية.لهذا تصرف العساكر بقسوة تجاه الباشا وحرموه من الامتيازات الممنوحة له، وألقوا القبض عليه ووضعوه في سفينة وأرسلوه إلى أزمير. وكانذلك السبب المباشر في تجريد الباشا من سلطانه. ولم يترك للباشا سوى اللقب الشرفي ومن ثم أخذ الأغوات يمارسون السلطة التنفيذية منذ عام ١٦٥٩ حيث كان الجند ينتخبون كل شهرين أغا جديد بحسب الأقدمية. وكان النظام الجديد يحمل في ذاته بذور زواله وذلك من خلال مميزاته التي نخلصها في النقاط الآتية:

١- كانت مهمة الأغا ترتكز على محاولة الانفصال عن السلطة العثمانية والاستقلال بالجزائر ولو شكليا.

٢- قيامه كان انتقاما من طائفة الرياس التي تحكمت في البلاد لسنوات عديدة.

٣- توليها لإدارة البلاد سيجرها لا محالة إلى صراعات داخلية لا سيما مع فئة الكراغلة.

إن تولي الإنكشارية لسلطة الجزائر جاء في ظروف صعبة ومعقدة وقد زاد هذا النظام البلاد سوءا وجرها إلى صراعات داخلية لا حصر لها على جميع المستويات خاصة وأن طائفة رياس البحر لم ترغب في تقديم أي دعم اقتصادي للطبقة الحاكمة (الإنكشارية) في اعتقادها بأن السلطة قد سلبت منه بل كانت تشارك في الاضطرابات ضد الأغوات محاولة منها لاستعادة السلطة المفقودة.

لقد عرفت فترة حكم الأغوات بكثرة التمردات وانتشار الفوضى والاضطرابات داخل البلاد فعلى سبيل المثال أن خليل أغا لما تولى الحكم في

البلاد وعند نهاية مدة حكمه رفض الالتزام بمبدأ الديوان القائم على استلام الشخص المنتخب لمدة شهرين فتمردت الإنكشارية وهاجموه وقتلوه وعينوا مكانه رمضان أغا سنة ١٦٦١ الذي قتل هو الآخر بسبب رفضه التخلي عن الحكم بعد نهاية مدته. عين بعده شعبان أغا ١٦٦٥ ففي عهده تعرضت البحرية والموانئ الجزائرية للهجمات الأوروبية والتي كان أخطرها نزول الفرنسيين بجيجل عام ١٦٦٤ مما أزال كل مبرر لبقائه مدة أطول وقد عرف علي أغا نفس المصير حيث قتل عام ١٦٧١ على الرغم من سياسته الحكيمة بسبب ما أبداه من تساهل تجاوزحدود المعاهدات والتسهيلات التجارية إلى معاقبة عدد من زعماء الطائفة بالإعدام علنا بحضور ممثل فرنسا الذي تقدم بشكايات ضدهم بالرغم من أن الفرنسيين استمروا في مهاجمة السفن الجزائرية وتهريب الأسرى من الجزائر وقد بلغ الضيق أشده بالطائفة حيث تعرضت السواحل الجزائرية لهجمات البحرية الإنجليزية التي ألحقت أضرارا كبيرة بالسفن والموانئ الجزائرية وقد حملت الطائفة علي أغا مسؤولية هذه الأضرار واتهمته لأنه لا يهتم بأمور البحر كما اتهمه الجند بتكديس ثروته الشخصية.

لقد عجز الأغوات عن توفير الاستقرار الداخلي رغم قصر فترة حكمهم الذي دام ١٢ سنة ولم يكتب له البقاء طويلا فكانوا عرضة في كل حين لمجابهة تمرد الطائفة أو الجند أو القبائل، فقد دفع البلوكباشي ثمنا لرغبته بالاحتفاظ بمنصبه بعد انقضاء مدتهمخالفا بذلك تقاليد الأوجاق. وهو الأمر الذي جر البلاد إلى فوضى واضطراب بسبب عجز حكام البلاد في التحكم وضبط النظام بأيدي قوية لذلك أصبحت فيه رغبة ملحة لانتزاع السلطة من الجيش فانتهى بذلك عهد الأغوات في سنة ١٦٧١ وعين حاكما للجزائر ليبدأ

بذلك عهد جديد عرف بعهد الدايات.

٤- مرحلة الدايات (١٦٧١- ١٨٣٠):

يمثل هذا العهد المرحلة الأخيرة من مراحل الحكم العثماني بالجزائر حيث تم إحداث نظام الدايات وذلك بسبب الخطر المحدق الذي أصبح يعيشه الحاكم (الأغا) لا سيما خطر الاغتيالات التي تعرض لها باستمرار. كان الدايات ينتخبون في أول الأمر من طائفة الرياس (١٦٧١- ١٦٨٩) ثم استرجع الأوجاق نفوذهم فأصبح الداي يختار من بين ضباط الإنكشارية. مما أعطى للإنكشاريةنظاما حكوميا شبيها بالحكم الجمهوري الحديث. يمارس فيه الداي سلطته شبه مطلقة في مجال جمع الضرائب وحفظ الأمن الداخلي.

لقد زالت سلطة الأغوات وجاءت أرستقراطية الرياس (البحرية) لتقيم نظاما جديدا الهدف منه تأمين مصالحها وحماية امتيازاتها، كما رأت ضرورة تجاوز أخطاء الأغوات والابتعاد عن الصراعات الداخلية، كما تجاهلت سلطة الديوان والباشا القادم من اسطنبول وبذلك تكون قد تعززت سلطةالداي سنة ١٧١١ فالداي رغم اختياره من الوجاق من بين ثلاثة موظفين ساميينهم الخزناجي وأغا العرب وخوجة الخيل إلا أنه بعد هذا التعيين الديمقراطي كانيتصرف كحاكم مستبد برأيه وسيد مطلق الصلاحية بالإيالة وكان يوجد صنفين من الدايات:

- دايات مصلحين: عرفوا بأعمالهم الخيرية مثل الداي بابا محمد عثمان (١٧٦٦- ١٧٩١) حيث أنفق ثروته الخاصة في تشييد المسجد المقابل لقصره، يصليالجمعةقام بتشييد قلاع وحصون لحماية مرسي الجزائر،وضع في خزينة الدولة مائتي الف جزائرية من امواله الخاصة وقد حظي هؤلاء بالتمجيد والاحترام.

– صنف آخر من الدايات عرف بعدم مقدرته على تسير أعمال الدولة لأنه وصل إلى منصبه بفضل تمرد الإنكشارية المطالبة بزيادة الأجور والهدايا وكان هذا النوع من الدايات يمتهن مهن وضيعة مثل فحام، إسكافي، كناس أو غسال مثل الداي علي الذي يقال بأنه كان يشتغل بغسل الأموات قبل سنة ١٨٠٨م. تميز هذا الصنف بالإسراف والتبذير كالداي محمد بن بكير باشا (١٧٤٨– ١٧٥٤) الذي أنفق الكثير من أموال الخزينة على رفاهية زوجته وأولادها هذا بالإضافة إلى الداي حسين الذي أعماه المال فاندفع بجمع الذهب والفضة من خلال عمالة يهودية وكان متعجرف وجاهل بالسياسة حيث جمع أمواله وغادر الجزائر. فغالبا ما تكون نهايتهم مؤسفة ومغضوب عليهم من طرف الجند فتصادر أموالهم ويعرض أولادهم للانتقام.

ما يميز فترة عهد الدايات هو تقليص نفوذ الديوان ولم يكونوا يتقيدون بقراراته إلا عندما تكون هذه القرارات مفيدة تخدم مصالحهم. كما نشطت البحرية الجزائرية في عهد الدايات مما أدى إلى قيام عمليات انتقامية أوروبية لاسيما فرنسية سنوات ١٦٨٢– ١٦٨٣– ١٦٨٨ وقد ألحقت هذه العمليات أضرارا كبيرة بالبحرية الجزائرية وقد قامت الدول الأوروبية بهذه الهجمات بعد أن تقوت وتوحدت وأصبحت تلاحق السفن الجزائرية الأمر الذي أدى إلى ضعفها وانعكس ذلك على نفوذ الرياس الذي تضاءل شيئا فشيئا فبدأ الصراع من جديد وظهرت قوة الكراغلة التي استغلت ضعف الرياس وانهيار الإنكشارية فراحت تفرض وجودها وكان ذلك عام ١٦٨٩.

كانت سلطة الداي مطلقة وإن كانت نظريا مقيدة، فهو الذي ينظر في مسائل الحرب والصلح وهو الذي يختار وزراءه بنفسه وكانت الوزارة تتألف على

النحو التالي: الخزناجي هو المكلف بالشؤون الداخلية والمالية ، يخلفه في حالة غيابه أو مرضه وكيل الخرج يشرف على البحرية ودور صناعة السفن والموانئ، يتلقى الكثير من الهدايا بحكم وظيفته من القناصل والتجار. وخوجة الخيل وهو بمثابة مدير أملاك الدولة. والبيت مالجي هو مسؤول عن تسجيل العقود والمواريث التي بدون وريث. والأغا هو قائد الجيش وشيخ الإسلام وهو بمثابة وزير العدل والشؤون الدينية. والباش كاتب هو بمثابة أمين عام.

الداي مجبر على الإقامة والعيش في قصر الجنينة وفي سنة ١٨١٦ نقل الداي علي خوجة مقره إلى قلعة القصبة في أعلى المدينة ليتقي خطر الجند.

ينفصل الداي منذ اللحظة الأولى من انتخابه عن عائلته ولا يعود إلى منزله لرؤية عائلته إلا يوم الخميس ليقضي ليلته هناك ثم يؤخذ قبل صلاة الجمعة لأداء الصلاة بعدها يذهب مباشرة إلى قصر الجنينة ومعنى هذا أنه يبيت سوى ليلة واحدة في منزله الخاص أيام الأسبوع.

تقوم الحكومة بتأمين طعامه وطعام عائلته، كما تأتيه هدايا وأموال من مصادر عدة منها عن طريق تعين الوظائف والمساعدات وغرامة العقوبات ومن القرصنة والفدية، عائدات السفراء، هدايا القناصل وهي مكافئة له مقابل تحمله العمل.

وقد وصف الكاتب الإسباني جوان كانوا الداي أنه "...رجل غني ولكنه ليس سيد خزينته، أب بدون أطفال، زوج بدون إمرأة، طاغية بدون حرية، ملك العبيد، عبد أتباعه...".انتهى حكم الدايات بسقوط الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠.